قراءة

في روايته الأخيرة، يتّخذ الروائي السوري من المكتبة، بما تمثلهُ من التقاء لعالم البشر بالكتب، مُحرّكًا للأحداث برمّتها؛ فالتخريب الذي طاولها هو الحدث الذي تمتدّ الحكاية بدءاً منهُ وانتهاءً إليه، والشخصيات إمّا داخلة إلى عالم المكتبة أو خارجة منهُ

سومر شحادة

يجمع ممدوح عزّام في روايته الأخيرة «حبر الغراب» الصادرة عن دارَي «ممدوح عدوان» و«سرد»، مصائر البشر والكتب معاً. يجعل من الأدب والحياة مادة واحدة، تتشابكُ مفرداتُ العالمَين، ويصبحُ القارئ تحت تأثير التفاعل الحيّ بين ما هو مرئي ومدرَك، وما هو غير مرئي وغير مدرَك، مفتوناً بشخصيات عرفها في روايات شهيرة، ومفتوناً ببشر غيّرت الكتب اعتقادهم حيال الحبّ والعيش.

يتّخذ عزّام من المكتبة، بما تمثلهُ من التقاء لعالم البشر بالكتب، محرّكاً للأحداث برمّتها. فالتخريب الذي طاولها هو الحدث الذي تمتدّ الحكاية بدءاً منهُ وانتهاءً إليه. والشخصيات إمّا داخلةٌ إلى عالم المكتبة أو خارجة منهُ؛ إذ لكلّ شخصية حكايتُها مع كتاب، استعارتهُ، ونجا من عملية السطو، أو سرقتهُ، ونجا أيضاً من عملية السطو الحزبي التي قادها لطفي الجمل، كي يتولّى دفّة القيادة في البلدة، وذهب ضحيةَ العملية القيّمُ على المكتبة فارس أبو لوز.

تبدو الحكايات التي شاركت المكتبة في صناعتها - على الرغم من إنسانيتها - هامشاً أمام حكاية المكتبة ذاتها، وقد جعل منها عزّام مثالاً للأخلاق والعمل، وتعبيراً عن مجد البلدة وعن الحياة المدنية، وذلك بوضعه المكتبة مقابل قيم الوشاية وكتابة التقارير والارتزاق، وهي القيم التي حضرت مع الحزب، وعزّزها في المجتمع. إذ لا يغيب عن الروائي السوري الواقع السياسي الذي انجب حكايتهُ، إذ تتخفّى السياسة في فضاء الحكاية البعيد، ولطالما كانت التغيُّراتُ الاجتماعية التي تعقبُ الحدث السياسي مساحةَ عزّام الأثيرة في الكتابة. وفي هذه الرواية، يروي تغيّرات أعقبت عام 1963، ويرصدُ ما يدعوه «زمن الضبّاط»، بهذا يُخبرنا، من غير أن يُصرّح مباشرةً، بأنّ المكتبة في السماقيّات هي الزمن المدني الموؤود. وما أعقبَ ضياع الكتب من ستاتٍ لشبّان القرية إشارةٌ عميقةٌ تحاكي أسطورة برج بابل، حيثُ اجتمعَ أهالي السمّاقيّات على أسطورة، هي المكتبة، ومن ثمّ تبلبلت مصائرهم بضياع الأسطورة، كما لو أنّ المطلوب ألّا يجتمع الناس إلّا على ما تنتجهُ السلطة من ولاءات.

يتناوب كلّ من توفيق الخضرا وابنه فيصل على حكاية قصّة نهب المكتبة ومقتل فارس أبو لوز، إذ يكتب الابن تعليقاتٍ على رواية الأب «المكتبة البيضاء». وعبر هذا التناوب الذي يعزّزه عزّام بعباراتٍ احتمالية تخمّن الحكاية، وتبحث في احتمالاتها، تُشرك الرواية قارئها في حلّ لغز السرقة والقتل في تتبُّع بوليسي للبحث عن المكتبة الضائعة. وتُشركه بالتالي في مقاومة زمان القحط والخوف. يستخدم توفيق اليومات قديمة من كاميرا نازي النقط، متخفّياً، صوراً في أثناء نهب المكتبة، ويُصوّر توفيق من خلال قراءة الظلال المعتمة للسارقين القتلة، الجريمة التي تشبه قصة موتٍ معلن. وعندما يتحرّى مصير القيّم الذي اعتبر الضابطُ موته انتحاراً، إلى جانب اهتمامه بمصير الكتب، بدا أنّه ضائعٌ أمام سؤال صالح الناجي: «هل تبحث عن الكتب فعلاً أم عن قتلة الروح؟» كما لو أنّ كليهما قتلٌ، كليهما يحمل شؤم الآخر، ورعبه.

يرسم عزّام شخصية فارس أبو لوز رسماً محكماً بديعاً، فهو شابٌّ مقْبل بالكتب، حماسته تنبئ الدروب، يقول عن نفسه إنّه «قارع أجراس الحرية». لقد بدا خارج حسابات البشر ومشاحناتهم، ودوداً وكثير الابتسام، يعمل في المدينة في مكتبة أستاذ كهل كي يكمل دراسته، ثمّ بعد اعتقال المكتب الثاني للأستاذ الراضي إثر سقوط ديكتاتورية الشيشكلي، يعود فارس إلى السمّاقيات، ويصنع بمشاركة توفيق المكتبة التي ستقودهُ إلى حتفه، ويدفع اقتحام منزل توفيق وتفتيشه على نحو مروّع من قبل لطفي الجمل ورجال الشرطة، بالعائلة إلى الرحيل إلى المدينة حيث يترك توفيق مهنة التعليم، ويعمل في دكّان.

في المدينة، تبدأ حكاية الكتب ما إن يلتقي توفيق مع فوزي النجّار، سمسار الكتب المستعملة، حيث وجد اسم مكتبة السمّاقيات على غلاف أحد كتب الرصيف بعد سنوات من اختفائها، وكانت التحقيقات الرسمية قد اعتبرتها خيالاً، خصوصاً مع تامر لقمان لقمان، الذي شهد زوراً أمام الضابط بعدم وجود مكتبة أساساً، وذلك مقابل «بطحة عرق». الأمر الذي يعترف به لتوفيق بعد سنوات طويلة، ويترك له لائحةً بسبعة أسماء تساعده على التذكّر. يسرد توفيق حكايات الأسماء السبعة مع الكتب، إذ تتبدّى مهارة عزّام المعهودة في التقاط الحبّ وإشاعته، ويلمحُ القارئ في «حبر الغراب» النداء الخافت السرّي للعاطفة ولتعابيرها. ويمكن أن تكون هوامش الكتب التي يترك عليها العشّاق رسائلهم، وهم يتبادلون كتب مكتبة السماقيات، التعبير المثالي عن أدب عزّام. إذ يجيدُ الروائي السوري التعبير عمّا هو خجول ومسالمٌ ومتوار من قصص الناس في مجتمع يدأ يُصدِّرُ كلّ ما هو عنيفٌ لصورة الحرب.

في الحكايات السبع التي يسردها توفيق، تلتئم كتبٌ تشيخوف، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، والمنفلوطي، مع قصص حبٍّ خائبة، مع حكايات موتٍ وانتحارٍ وعجزٍ وبطولة، كما تنطوي كتب طه حسين، وغوركي، على استعاراتٍ غيّرت حياة الشخصيات. يحكي لنا عزّام عن «الأم» التي تخبّئ روايةَ غوركي في مكان مخصّص لكتاب الحكمة، عن الزوجة التي تحاول فهم زوجها عبر قراءة ملاحظاته على رواية «السراب»، وعن العاشقة التي أيقظت قراءتها لكتاب «سجن العمر» ضميرها النائم، وكانت قد حمت نفسها من الحبّ من طريق الوشاية بالمحبوب، ويحكي لنا عن عاشقَين جمعهما الحديث عن المكتبة في أكثر لحظاتهما وجداً. وعودة إلى حكاية المكتبة، تشير إحدى الشخصيات المتأثرة بجان فالجان في «البؤساء» إلى أنّ «الحشود مجرمة»، لكنّ الراوي يرى، في مفارقةٍ بارعةٍ ولاهية، أنّ الحشود هي التي أنقذت المكتبة من التدمير، وذلك عبر سرقتها، ولاحقاً أنتشار كتبها في البيوت، الأمر الذي لاحقهُ الراوي، وقصّ حكاية الكتب المسروقة التي حيناً صنعت حياة الناس، وحيناً حطمتها. «لطفي الجمل أراد أن يدمّر المكتبة، لكنّ الناس أخذوها. لا أعرف إذا ما كان هذا الأمر مكرماً من التاريخ، أو هبلاً، أو مصادفة. ولا أعرف إذا ما كانوا قد تصرّفوا بوحي من ضمائرهم، أو وجدانهم، أو لا وعيهم الفطري، أو لصوصيّتهم وجشعهم؟ من يستطيع أن يعرف؟».

(كاتب من سورية)

ممدوح عزّام

ممدوح عزّام برج بابل في السمّاقيات

في الزمن المدني الموؤود

يضع المكتبة مقابل قيم الوشاية وكتابة التقارير

لكلّ شخصية من شخصيات الرواية حكايتُها مع كتاب

بطاقة

روائيٌّ سوري من مواليد محافظة السويداء عام 1950، أصدر أول أعماله الأدبية عام 1985، وهو مجموعة قصصية بعنوان «نحو الماء». من إصداراته في الرواية: «معراج الموت» (1987)، و«قصر المطر» (1998)، و«جهات الجنوب (2000)، و«أرض الكلام» (2005)، و«نساء الخيال» (2011)، و«أرواح صخرات العسل» (2018)، و«لا تخبر الحصان» (2019)، «حبر الغراب» (2021). صدرت له مجموعة قصصية أولية في عام 2000 بعنوان «للشراع».

قصائد

خذوا معكم ماء، في مستقبلنا قَحْط عظيم

حتّى أنا الذي أحكي لكم قاوموني

ميخاليس كاتساروس

وصيّتي

قاوموا
ذاكَ الذي يبني بيتاً صغيراً
ويقول: أنا بخير هنا.
قاوموا ذاك الذي عاد إلى بيته ثانيةً
قائلاً: الحمد لله.
قاوموا
سجّادَ البنايات الفارسيّ
رجلَ المكتب القصير
شركةَ الاستيراد والتصدير
التعليمَ الرشميّ
الضريبةَ
حتّى أنا الذي يحكي لكم.

قاوموا ذاك الذي يُجَيّ الاستعراضات
من المنصّة لساعاتٍ لا تُحصى،
رئيسَ محكمة الاستئناف قاوموه
الموسيقى والطبول والمواكب
كلّ المجالس العليا التي يثرثر
ويحتسي القهوة فيها المؤتمِرون
المستشارون
تلك السيّدة العاقر التي توزّع
منشورات عن القدّيسين وبَخوراً وَمُرّاً
حتّى أنا الذي يحكي لكم.

قاوموا أيضاً كلّ الذين يُدعَون
كباراً
كلّ الذين يكتبون الخطابات عن الفَصل
قربَ مدفأة الشتاء
تَملّقَ الكتبةِ والجُبَناء وادعيتَهم
وهذا الكمّ من الانحناءات
أمام زعيمهم الحكيم.

قاوموا دوائر الأجانب
وجوازات السفر
أعلامَ البلاد الرهيبةَ،
والدبلوماسيّة

مصانعَ موادّ التسليح
أولئك الذين يسمّون الكلام الجميل
غنائيّةً،
الأناشيدَ الحربيّة
الأغانيَ العذبة مع الرثاء
المتفرّجين
الريح
كلّ اللامبالين والحُكَماء
كلّ الآخرين الذين يدّعون صداقتكم
حتّى أنا، أنا الذي أحكي لكم
قاوموني.

عندها يمكن أن نَعبر واثقين إلى
الحرّيّة.

■■■

سانتظركم

سانتظركم حتّى منتصف الليل الرهيب
لا مبالياً.
لم يعد هناك أيّ شيء انتبْتن منه.
الحرّاس حُقَّة يترصّدون نهايتي
بين قمصان مُنتَشة وفنايق.
سانتظر ليلكم لا مُبالياً
مبتسماً ببرودة للأيّام المجيدة.
خلف حديقتكم الورقيّة
خلف وجهكم الورقيّ
سافاجئ الجماهير
الريح لي
جُلّبَ باطلة وقرع طبول رسميّة
كلمات باطلة.

لا تَنْسَوا.
خذوا معكم ماء.
في مستقبلنا قَحْط عظيم.

■■■

سَأَدَعُكم

سأدَعُكم جميعاً تصيحون
أو أن تسندوا رأسكم هانئين
إلى الشبّاك -
سادعكم تنضغطون على درجات السلم
وتتحوّلون فجأة إلى رخام هناك
جاهلين أفعالكم -
سأدعكم تركضون.
وأنا، وسط أشجار يابسة وقبور
حاملاً غَلماً خِرقة
بريح وبغير ريح
وسط حشدكم المتردّد
سأجول وحدي.
أميراً، ساحراً متوهّجاً
حان الوقت. ستتدمّر المعابد.
لا نار في قلبكم.

وأنا
مجيداً
أكتب
في كلّ أحلامكم:
حرّيّة.

■■■

اللّا 2

الآن يمكنني أن ألج.
لقد انفتح الباب.
داخل الشجرة أحيا وأوجَد-
ترتجف الأوراق- ترتجف الأزهار-
لقد أصبحتُ الثمرة.

تعالوا قربي- هناك سكينة
تعالوا، تعالوا، هو ذا جسدي
أقدّمه لكم- هناك سكينة-
لقد أصبحت الثمرة.

اقبلوني من جديد. أنا الريح أنا الغضب-
أنا آخر درجاتكم
أنا انتم فأولاها- تقدّموا.

الأعلام تَتَبَدّل- تُبدّلُ الأيادي تَتَبَدّل
تَنزل الجماهير بلا انتظام- في كتائب
من جديد
تَنزل.

تُفرّق الريح السنابل- الشعوب
تَتَبَعْثَر المجموعات- تَكثُر الأماكن-
يحدث الصدام.

لا أحد. وحيد مجدّداً على التلّة
على الصخور الجديدة- على المنبسطات
وحيد
مع الريح الجديدة واحد وحيد
أنظُرُ إلى العشب- إلى الأشجار إلى
الشمس
أنظُر أنظُر.

(ترجمة عن اليونانية: روني بوسابا)

بطاقة

شاعر ورسّام يوناني، ولد عام 1919 ورحل في أثينا عام 1998. انخرط في صفوف مقاومة الاحتلال الألماني لليونان. تعرّف في أواخر العام 1944 إلى الملحّن الشهير ميكيس ثيودوراكيس الذي لحّن عدداً من قصائده. يتميّز شعره بالبعد الإنساني وبحمله قضايا الحرّيّة والعدالة والمقاومة.

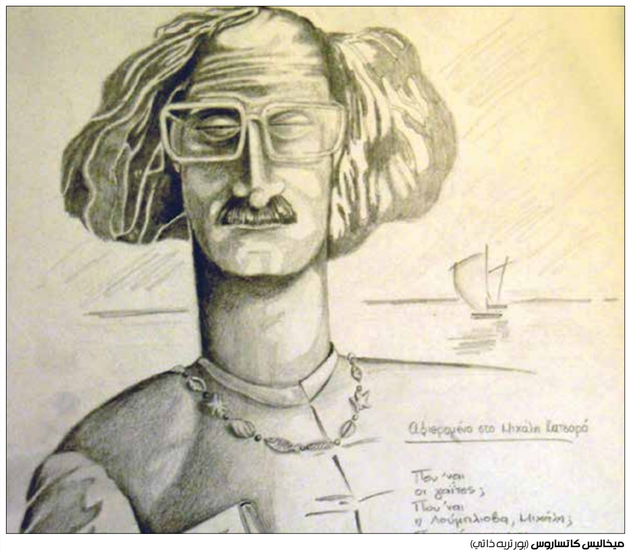

ميخاليس كاتساروس (يورتريه ذاتي)

يوميات

تدبُّر ثمن العبور إلى بلد آخر

مخيّم ملفوف في زفرة

بالنسبة إلى لاجئ متأمّل، يُعَدّ مبنى المخيّم مثالاً دقيقاً على «تجربة العمارة» لسحق كلّ ما هو كريم في النفس البشرية

باسم النبريص

يتمتّع مخيم بروخم اليوم بمكانة شبه إجماعية تُخَصّص عادةً للروائع. عمره عشرون عاماً ونيف، فقط، لكنّه بالفعل كلاسيكي معاصر، أحد المباني الكئيبة «الأساسية» القليلة التي تمّ بناؤها كثكنة للجيش البريطاني، في القرن العشرين.

هذا هو الإعجاب الذي يُثيره المخيم، من قبل الفلمنكيين، لدرجة أنّه يكاد يكون من الصعب تذكّر مدى الجدل الذي كان عليه لحظة إنشائه في الأصل. هذا المبنى الذي قد يبدو اليوم ديمغوجياً وقصير النظر، كان في ذلك الوقت حازماً جدّاً، وشكّل عقبة كبيرة في وجه الإنسانيين، من مختلف الأعراق والألوان.

بالنسبة إلى لاجئ متأمّل، كحالي، يُعَدّ المخيّم مثالاً دقيقاً على «تجربة العمارة»، لسحق كلّ ما هو كريم في النفس البشرية، وهو مبنى يتمّ الاستمتاع به «من العقل ومن الحدس ومن الشعور». إنّه عمل عسكري رأسمالي، قادر على التقاط جوهر الثقافة الفلمنكية والمناظر الطبيعية المحيطة بها: إنّه يمين، إنّه خصب، إنّه حشويّ ومائيّ، إنّه عذراء في الغابة، إنّه مئوية الألم، إنّه ركام عذابات، إنّه تنّين جليد. إنّه ملفوف في زفرة، إنّه روحٌ ثاني أكسيد الكربون. وكل هذا يُنزل بطريقة طبيعية ومن دون صرامة، ويُفكّك مرّة واحدة وإلى الأبد، ذلك التحيّز بأنّ العمارة المعاصرة غير مفهومة لأنّها عقل بلا عاطفة، كيان بلا روح.

■■■

الفيداسيليون؟ هل هم قلقون بشأن المستوى الذي يصل إليه اللاجئون، عندما يُرفض ملفهم بشكل باتّ؟ ترى هل تُحرك أعصابهم محاولاتُ الانتحار المتكررة، وقد نجحت إحداها أخيراً، من قِبَل لاجئ سوري؟ متى يغيّر الله الفيداسيليين؟ متى يجعل العالم غير رأسمالي، بالمرّة؟

فعبارة أنّ الشباب يمرّون بكلّ شيء موحش وخانق للكرامة، كانت مكتوبة بالفعل في وعاء من بابل القديمة. ومع هذا لم يحرك الفيداسيليون البلجيكيون ملفّاً ساكناً. قد يكون هناك المزيد من الدراسات الفنية التي تتطلب التعزيز (في المشمش)، إنّما ما شأن الطلاب من اللاجئين، يأتون بمهارات مختلفة عمّا كانت عليه قبل بضع سنوات (على سبيل المثال، حين يأخذون كورس الاندماج، وكورسَي اللغة الفلمنكية، حتى أنّ بعضهم لديه هذه اللغة المحلية، بشكل جيد جداً، وقدرة جيدة جداً على العثور على المعلومات، وحساسية عالية جداً لقضايا مثل البيئة)، حين يُرفض ملفّهم، وينبغي عليهم البحث عن بلد آخر، بعد إقامة هنا تمتدّ سنتين وثلاثاً وأربعاً؟

وبعد الرفض، تُرى كيف سيقودون المزيد من البحث؟ من أين سيأتي المزيد من التمويل كي يدبّروا ثمن العبور لبلد آخر؟

لقد كانت زكيرة عظيمة لهذه البلد، أن يُزعم أنّه بلدٌ حقوق الإنسان الأول، على مستوى أوروبا. لكنّ ما رأيناه وخبرناه (هذا العمل الرديّ، الذي لا ينتهي عند نشر المقال، بل يتفاقم)، يدلّل على العكس تماماً.

وعليه، فما يفعل اللاجئون ببلاد استقبلتهم، مكرهةً، ولا تحبّ تيسير أيّ شيء عليهم؟

هل يجب البحث عن آليات لجعل شكوى الودعاء الطيّبين تصل؟ وهل ثمة حاجة أيضاً إلى مزيد من التعاون بين القطاعين العام والخاص، وقد يئسنا، بعد تجارب ومحاولات، من جميع ما نرى؟

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

ما يفعل اللاجئ ببلاد استقبلته مكرهة ولا تحبّ تيسير أيّ شيء عليه؟

من سلسلة «تحوّلات»، ستيف سابيلا، 2012

فعاليات

حتى 7 نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل، يتواصل في «متحف الثقافات» بميلانو معرض **المرأة والمكسيك والحرية** للفنانة الإيطالية **تينا مُودُوتّي** (1896 - 1942). المعرض، الذي افتتح في مايو/ أيار، يضم مائة صورة فوتوغرافية للمصوّرة التي رحلت عن خمسة وأربعين عاماً، واشاد بها الكثيرون من بيكاسو الى نيرودا.

ضمن فعاليات **عروض سينما في الهواء الطلق** التي تُنظّمها «سينما متروبوليس» بالتعاون مع «الفندق» في معاصر الشوف بجبل لبنان، يُعرض عند الثامنة والنصف من مساء الجمعة المقبل الفيلم التسجيلي المقدوني **ارض العسل** للمخرجين المقدونيين **تمارا كونيفيسكا**، و**ليوبومير ستيفانوف**. رُشّح العمل لجائزة الأوسكار عام 2020، كأوّل فيلم مقدوني يُرشّح للجائزة.

في «مركز المؤتمرات» بـ«مكتبة الإسكندرية» يُقام عند الثامنة والنصف من مساء السبت، 24 الجاري، حفل موسيقي للفنان المصري **مدحت صالح** وفرقته الموسيقية بقيادة المايسترو **عمرو سليم**. يُقام الحفل ضمن **مهرجان الصيف الدولي التاسع عشر** الذي يُنظّمه «مركز الفنون» في المكتبة.

على منصة «Eventive» للأفلام، وضمن فعاليات «مهرجان ليفربول للفنون والثقافة العربية»، يُعرض من 22 إلى 25 يوليو/ تموز الجاري، فيلم **اريكة في تونس**. العمل من نصّ وإخراج المخرجة التونسية **منال العبيدي**، ويُعرض لأوّل مرّة في الدورة السادسة والسبعين من «مهرجان فينيسيا الدولي للأفلام» عام 2019.